# الغزو الأسباني للمدن والموانئ الجزائرية
# وهران والمرسى الكبير أنموذجا
# 1505-1792م

# *Spanish invasion of Algerian cities and ports*
# *Oran and Mers-El Kabir are a model*
# *1505-1792*

**صبرينة الواعر. المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبار، قسنطينة (الجزائر)**

***Sabrina LOUAAR. ENS CONSTANTINE (Algeria)***
***sabrinaboulouednineloua ar@gmail.com***

**تاريخ الاستلام: 2020/02/10 تاريخ القبول: 2020/03/13 تاريخ النشر: 2020/03/31**

**ملخص:**

على الرغم من سقوط دولة المسلمين في الأندلس عام 1492م، غير أنّ اسبانيا لم تكتف بذلك وقررت ملاحقة المسلمين إلى الشمال الإفريقي؛ لكنها تفاجئت بقوة إسلامية جديدة قادمة من شرق حوض البحر الأبيض المتوسط، وهي القوة العثمانية، التي اكتسحت المتوسط واحتلت أجزاء عديدة منه، إلى أن وصلت بلاد المغرب مع مطلع القرن16م ، وهناك حدث الاحتكاك بين الأسبان والعثمانيين الذي تحوّل بعد وقت قصير إلى صراع على أشده عرف بالصراع الإسلامي المسيحي في البحر الأبيض المتوسط. مع ذلك تمكنت إسبانيا من وضع يدها على مينائي وهران والمرسى الكبير سنة 1505م خاصة لقربهما الجغرافي لمضيق جبل طارق. فيا ترى ما هي دوافع الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية؟ وهل للأمر علاقة بحركة الاسترداد المسيحي أم لأسباب أخرى؟

**كلمات مفتاحية:** إسبانيا.، العثمانيون.، بلاد.المغرب.، وهران.، المرسى.الكبير.

**المؤلف المرسل:** صبرينة الواعر ، **الإيميل:**sabrinaboulouednineloua ar@gmail.com

**Abstract:**

Despite the fall of the Muslim state in Andalusia in 1492 CE, Spain did not stop doing so and decided to pursue Muslims in northern Africa; but it was surprised by a new Islamic force coming from the eastern Mediterranean basin, the Ottomans power, which swept the Mediterranean and occupied many parts of it.

However, Spain was able to hand over the ports of Oran and the Mers -El Kabir in 1505, especially for their geographical proximity to the Strait of Gibraltar. Via who are the motives behind the Spanish invasion of the Algerian coasts? Is the order linked to the Christian Recovery Movement (Reconquista) or for other reasons?

**Keywords:** Spain; The Ottomans; Maghreb Countries; Oran; Mers-El Kabir.

**مقدمة**

**شهد القرنان 14-15م تنافسا شديدا بين دول حوض البحر الأبيض المتوسط، واختلال في موازين القوى خاصة بين قوى جنوب غرب أوروبا، وبلاد المغرب في الشمال الإفريقي. عرفت هذه الأخيرة في فترات تمتد بين القرن 10-13م تقدما في ميدان البحرية وصناعة الأسطول؛ مما ساهم في انتعاش تجارتها البحرية، وتزايد ثرواتها الاقتصادية، فصارت سيدة البحر الأبيض المتوسط بلا منازع، بعدما كان هذا اللقب- سيدة- حكرا على المدن الإيطالية وعلى رأسها جنوة ونابولي. كما أن بلاد المغرب حققت هذا النجاح الاقتصادي بفضل موقعها الإستراتيجي؛ فقد كانت همزة الوصل بين الصحراء الكبرى والبحر الأبيض المتوسط، وتتحكم في معظم طرق القوافل التجارية، وتحتضن أهم الأسواق، هذا ما ولّد غضبا لدى الدول الأوروبية التي رفضت هذا التفوق المغربي، وسعت لانتزاع هذه المكانة منها، واتضح ذلك من خلال سلسلة الهجومات والاتهامات التي وجهتها ضد تلك الدول وكان في مقدمة**

تلك الاتهامات القرصنة[1]. وابتدأت الدول الأوروبية بشن حملاتها على سواحل بلاد المغرب تدعمها سلطة الكنيسة، وقد تزامن ذلك مع تراجع قوى هذه البلاد بين بني حفص في تونس، وبني زيان في الجزائر، وبني مرين في المغرب الأقصى في القرن الثالث عشر ميلادي، في الوقت الذي بدأت فيه الدول الأوروبية تعرف تقدما يحسب له ألف حساب؛ فقد جاءت النهضة الأوروبية بثمرتها المنتظرة وتحقق الرقي على كافة النواحي وانتعشت الحياة الاقتصادية والاجتماعية وحققت الحركة العلمية نجاحا فسهلت عملية ركوب البحار، بتطوير صناعة الأسطول والاعتماد على التقنية الحديثة[2]، وهذا ما حفز الدول الأوروبية على القيام بالكشوفات الجغرافية والخروج من محيط القارة الأوروبية، وكانت المبادرة من قبل البرتغال واسبانيا، هذه الأخيرة التي حققت صدى واسع النطاق بعد تمكنها من قهر الدولة الإسلامية في الأندلس وإسقاط آخر قلاعها، وهي غرناطة 1492 وهي السنة ذاتها التي وصل فيها كريستوف كولومبس إلى سواحل العالم الجديد –أمريكا- بعدما باركت رحلته الكنيسة والملكة الإسبانية إيزابيلا التي زكّت هي وزوجها فرديناند حركة الاسترداد المسيحي **Reconquista**، القاضية بضرورة طرد المسلمين وإعادة مجد الكنيسة المسيحية في شبه القارة الأيبيرية.

وعلى الرغم من سقوط دولة المسلمين في الأندلس، غير أنّ اسبانيا لم تكتف بذلك وقررت ملاحقة المسلمين إلى الشمال الإفريقي؛ لكنها تفاجئت بقوة إسلامية جديدة قادمة من شرق حوض البحر الأبيض المتوسط، وهي القوة العثمانية، التي اكتسحت المتوسط واحتلت أجزاء عديدة منه، إلى أن وصلت بلاد المغرب مع مطلع القرن16م ، وهناك حدث الاحتكاك بين الأسبان والعثمانيين الذي تحوّل بعد وقت قصير إلى صراع على أشده عرف بالصراع الإسلامي المسيحي في البحر الأبيض المتوسط. هذا الصراع بين المسلمين والمسيحيين لم يكن وليد اللحظة بل جاء تبعا لتراكمات تاريخية وسياسية

---

[1] - «القرصان هو الشخص حرفي النهب، ولا يعترف بأي سلطة فوق إرادته الخاصة، فكان يهاجم بدون تمييز سفن أي دولة، وكان هدفه الوحيد هو النهب، لكن رياس البحر كانوا أشخاصا موكلين من غيرهم للقيام بهذه المهمة، ولم يشنوا حربا إلا على أعداء أميرهم...» ، ينظر جون ب. وولف، **الجزائر وأوروبا**، ترجمة سعد الله أبو القاسم،م.و.ك، الجزائر، 1986، ص 179.

[2] -Berbrugger A, "Mers-el Kabir 1 " ; traduction de Suaez", In **Revue Africaine**, Vol.09, 1865, p254

**شهدتها بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط، وسعي إسبانيا للوصول إلى بلاد المغرب لم يكن لملاحقة المسلمين الفارين من الأندلس فقط بل لدوافع أخرى كثيرة، فما هي يا ترى؟**

## 1. دوافع احتلال اسبانيا لوهران والمرسى الكبير:

### 1.1 الدافع الديني:

ساهمت الكنيسة الأسبانية بكل ما لديها من مال وحماس في محاربة المسلمين، فبعد سقوط غرناطة بدأ فرديناند وإيزابيلا في إعداد مشروع لاحتلال المغرب الإسلامي، لكن وفاة هذه الأخيرة سنة 1504م قد عطل تحقيق المشروع، لكنها تركت وصية تدعو فيها إلى مواصلة هذا المشروع جاء فيها:« يجب أن لا نوقف غزو إفريقيا، ولا إنهاء الصراع ضد الكفار-المسلمين- وهذا كله لأجل خدمة العقيدة.»[1]

احترم الكاردينال خيمينيس دي سيسنيروس Ximénies de Cisneros وصية الملكة، وبرز ذلك في أعماله المخزية ضد المسلمين في الأندلس، وعندما تمّ احتلال المرسى الكبير سنة 1505م، أقام خمينيس صلاة جماعية، وأقيم على إثرها احتفالات دامت 08 أيام[2].

### 2.1 الدافع السياسي والاقتصادي:

تجسّد في رغبة أسبانيا في تكوين إمبراطورية، خاصة بعد اكتشاف العالم الجديد؛ لذلك عملت على احتلال سواحل المغرب الإسلامي، لما لها من أهمية إستراتيجية لقربها من شبه الجزيرة الأيبيرية، فالسيطرة على المرسى الكبير ووهران، وهما أقرب الموانئ إلى أسبانيا سيمكنها من تأمين تجارتها في البحر الأبيض المتوسط، وكذلك يضمن الأمن الدائم والمستمر لمضيق جبل طارق، وهو المنفذ الوحيد للبحر الأبيض المتوسط من الجهة الغربية. و كذلك

---

[1]- جون ب. وولف، مرجع سابق، ص25.

[2]- نجيب دكاني، **الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية وردود الفعل الجزائرية خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر ميلادي**، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 2002، ص 18.

إحكام السيطرة على مسار السفن المبحرة عبره. لذلك ركزت أسبانيا في تنفيذ مشروعها التوسعي على الموانئ الإستراتيجية، فبدأت باحتلال المرسى الكبير1505م، وهو أحسن المرافئ الجزائرية، ثم وهران عام 1509م. وقد بذلت أسبانيا جهودا مضنية للاحتفاظ بإمارة تلمسان باعتبارها بوابة رئيسية نحو الصحراء الكبرى وإفريقيا، وبالتالي التحكم في أهم طريق تجاري من الجنوب إلى الشمال، واحتكار التجارة في أهم السلع والبضائع التي كانت في السابق في عهدة المسلمين[1].

**3.1 الدافع العسكري:**

تمثل في كثرة الهجومات الإسلامية على الشواطئ الأسبانية خصوصا بعد عمليات الطرد التي تعرض إليها مسلمي الأندلس، فقرر المسلمون في بلاد المغرب نصرة أشقائهم في الأندلس والانتقام لهم، هذا ما جعل أسبانيا تصر على الاستحواذ على بلاد المغرب لإيقاف تلك الهجومات التي أضعفت الاقتصاد الأسباني، وساهمت في تقهقر الأنشطة التجارية، بعد أن فضّل تجار جنوة ونابلولي، ومارسيليا وفالنسيا، أسواق وموانئ المغرب الإسلامي، بما فيها وهران والمرسى الكبير، وبخاصة بعد ظهور الصراع الفرنسي الأسباني في حوض البحر الأبيض المتوسط. وبعدها بوقت قصير ظهرت قوة إسلامية جديدة في حوض البحر الأبيض المتوسط تمثلت في العثمانيين الذين أعلنوا استعدادهم للتصدي للزحف الأسباني على السواحل المغربية. لذلك أصرت أسبانيا على احتلال الجزائر[2].

[1]- نجيب دكاني، مرجع سابق، ص 20.

[2]- المرجع نفسه، ص 22.

## 2. المخطط الأسباني لاحتلال الساحل الإفريقي:

بعد نجاح حركة الاسترداد المسيحي في أوروبا بإسقاط دولة المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية كمرحلة أولى، بدأ الأسبان بتطبيق المرحلة الثانية من مشروعهم، وهي إقامة مملكة مسيحية تمتد من شبه الجزيرة الأيبيرية مكتسحة الشمال الإفريقي وصولا إلى مملكة الحبشة المسيحية في القرن الإفريقي شرقا، وبذلك تفرض اسبانيا ضغطا وحصارا على المسلمين وتجعلهم بين فكي كماشة. وكحل أساسي لتنفيذ المرحلة الثانية من هذا المشروع القائم على نشر المسيحية في إفريقيا، وإعادة +مجد الإمبراطورية الرومانية القديمة؛ قامت إسبانيا باحتلال أهم موانئ مدن الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط كتونس، طرابلس، الجزائر، أسيلا.

استهل الإسبان عملياتهم البحرية بغزو المرسى الكبير بوهران لقربه من شبه الجزيرة الأيبيرية، ولأهمية موقعه ومرساه الجيد، وبعدها واصلت اسبانيا شنّ حملاتها على موانئ المغرب الإسلامي الواحدة تلو الأخرى.

### 1.2 وهران والمرسى الكبير قبل الاحتلال الإسباني:

ورد وصف لمرسى وهران على لسان إبن حوقل أواخر القرن العاشر للميلاد جاء فيه :« ...لمدينة وهران مرسى في غاية السلامة والصون من كل ريح، وما أظن له مثلا في جميع نواحي البربر سوى مرسى موسى، فقد كنفته الجبال وله مدخل آمن، وعليها سور، وماؤها من خارجها جار عليها في واد عليه بساتين وأجنة كثيرة فيها من جميع الفواكه...»[1]. ويضيف المقدسي قائلا:« أن ميناء وهران من أنشط الموانئ في حوض البحر الأبيض المتوسط، وأنّه قد

[1]- أبي القاسم ابن حوقل النصيبي، **كتاب صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، 1992، ص 78-79.

عرف تطورا وازدهارا منذ القرن 11، فهو ميناء حصين تبحر منه وإليه السفن الأسبانية ليلا ونهارا.»[1]

كما أشار الإدريسي قائلا:« المرسى الكبير وبه ترسى المراكب الكبار والسفن السفرية، وهذا المرسى يستر من الريح وليس له مثال في مراسي حائط البحر من بلاد البربر، وشرب أهلها من واد يجري إليها من البر وعليه بساتين وجنات وبها فواكه ممكنة وأهلها في خصب والعسل بها موجود وكذلك السمن والزبد والبقر والغنم بها رخيصة بالثمن اليسير ومراكب الأندلس إليها مختلفة ...»[2].

إن هذا الوصف الجميل من طرف هؤلاء الجغرافيين والرحالة، لم يأت عبثا، أو مجرد مبالغة من قبل المسلمين كما قال الأوروبيون[3]؛ بل جاء بناء على واقع عرفه حوض البحر الأبيض المتوسط في الفترة بين القرنين 10 و14م، فقد شهدت موانئ الجزائر وعلى رأسها الموانئ الغربية نشاطا بحريا وتجاريا على قدر من الأهمية، فقد كانت وهران والمرسى الكبير أحدى المنافذ البحرية الرئيسية لإمارة تلمسان، وقد تقاسمت الدور والأهمية الاقتصادية والإستراتيجية مع كل من ميناء هنين، و رشقون. كما كان المرسى الكبير ووهران بمثابة مستودع للتموين بالسلع القادمة من أوروبا. وظلت وهران تتقاسم الأهمية الاقتصادية من هنين ورشقون، حتى أواخر القرن الرابع عشر ميلادي فصارت على قمة هرم الأنشطة

[1] - Lespes R, "Oran ville et port avant l'occupation Française1831", In **Revue Africaine**, Vol 75 ; 1934, p281.

[2] - الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، مج 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ص 96-97.

[3] - Lespes R , Op.Cit. , p 279.

الاقتصادية للموانئ الجزائرية، خاصة للمميزات الطبيعية التي يتصف بها ميناء المرسى الكبير والتي عادت بالفائدة على البحارة والأساطيل التي كانت تجد سهولة الإرساء فيه[1].

وقد شهد القرن 13م حركة تجارية نشيطة لميناء وهران والمرسى الكبير وذلك بفضل العلاقات الاقتصادية والسياسية التي أبرمتها مملكة تلمسان سنة 1229م مع أوروبا، كتلك التي عقدتها تلمسان مع قطلونيا، وفي عام 1319؛ أقيمت علاقات رسمية بين أبي حمو الزياني حاكم تلمسان، وجيم الثاني Jayme2 حاكم مونبيلليMontpellier، ومعاهدة أخرى مع Narbonne، ومرسيليا Marseille، واجتمعت كل هذه الاتفاقيات على ضرورة تأمين سلامة التجار والسفن ضد خطر القرصنة، بالإضافة إلى حرية التجارة في كل الموانئ وحرية تبادل كل السلع ماعدا تلك التي تستلزم تصريحا من السلطان كالقمح مثلا، كذلك حق إرسال قناصل إلى تلمسان والدول الأوروبية المتعاقدة مع إمارة تلمسان[2].

كما سمحت هذه الاتفاقيات التي أبرمتها إمارة تلمسان بين القرنين 13 و14م بإقامة فنادق للأوروبيين في الموانئ والمدن الجزائرية، وكذلك إقامة شوارع مسّورة قصد البيع وتخزين السلع ، بالإضافة إلى إقامات مخصصة للقناصل. وقد عرف القرن 15م إنشاء أولى الفنادق في تلمسان، وكذلك في وهران.

وتطبيقا لهذه الاتفاقيات سارعت الدول الأوروبية لإيجاد مكان لها في بلاد المغرب، وأولها جنوة في بداية القرن 13م، ثم البنادقة، وحول هذا الشأن كتب ليون الأفريقي قائلا:« ولهذه المملكة-تلمسان- ميناءان مشهوران، ميناء وهران، وميناء المرسى الكبير، وكان يختلف إليهما

[1] -Ibid., p280

[2] - Ibid., p 289-290

كثيرا عدد وافر من تجار جنوة والبندقية حيث يتعاطون تجارة نافقة عن طريق المقايضة...»[1]

وتجدر الإشارة إلى أن الأسبان والأوروبيين قد أخفوا هذه الحقيقة في مؤلفاتهم، فقد كان مينائي وهران والمرسى الكبير من أشهر الموانئ وأغناها، وأشار ليسبيس Lespes إلى هذا الأمر قائلا: «... وهران لم تكن قوية كفاية كي تكون إقليما مستقلا بذاته، أو ندا للأقاليم المجاورة، حتى أنها أقل مكانة مقارنة مع تنس، وموقعها ( وهران) جعلها تتقاذف بين أسياد الشرق، الجنوب، الغرب والشمال، محاصرة من طرف المتنافسين، منهوبة من طرفهم، وأحيانا كثيرة محاصرة من قبل القبائل المجاورة، فقدر وهران ورفاهيتها كان مقرونا بتلمسان جارتها القريبة»[2]، لكن هذا الكاتب تناسى حقيقة أن وهران مجرد إقليم تابع لإمارة تلمسان التي تمتد من الساحل إلى الصحراء، وأنها جزء صغير من أراضيها. كما أن الأسبان اعتبروا وهران والمرسى الكبير مجرد حامية Presidio وسجن للأشغال الشاقة، بدعوى أنهما يضمان عددا كبير من الأسرى المسيحيين.

هذا التطور الاقتصادي الذي عرفته وهران من شأنه أن يجعلها مركز استقطاب وتنافس تجاري، وبما أنّها جغرافيا قريبة إلى السواحل الأسبانية فقد سعت هذه الأخيرة لوضع يدها عليها خاصة وأن البرتغاليين كانوا قد قاموا بأول محاولاتهم للسيطرة عليها عام 1501، وأسبانيا كانت ترى نفسها الأحق بالسيطرة على ميناء المرسى الكبير ووهران، فقد صارت معظم شبه الجزيرة الأيبيرية ملكا لها بما فيها السواحل الجنوبية للأندلس، وكما نعلم أنّ

[1] - الحسن بن محمد الوزان الفاسي (ليون الإفريقي)، **وصف إفريقيا**، ط2، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 09.

[2] - Lespes R, Op. Cit, p 279.

أقصى الجنوب الأسباني هو مضيق جبل طارق، وقد صارت أسبانيا تراه غير كاف لإمبراطورية قهرت المسلمين في الأندلس، وتسعى لتوسيع رقعتها في بلاد المغرب قصد تأسيس مملكة مسيحية كما تدعي. لذلك كانت فكرة احتلال وهران تسيطر على فكر الملك الأسباني فرديناند، وهذا ما قام به بالفعل بعد وقت قصير.

**2.2 الغزو الأسباني للمرسى الكبير:**

أعّد الملك الإسباني فرديناند حملة، أوكل أمر قيادتها إلى دون ريمون دي قوردو Don Raymond di Cordoue، وموّلها الكاردينال خيمينيس بأمواله الخاصة. غادر الأسطول ميناء مالقة في29 أوت 1505م، بقوّة تعدادها 5000 رجل بقيادة دون ديتوفر فرناندیز Don Ditfourre Fernandez، لكن الرياح قذفت بالأسطول الأسباني إلى شواطئ المرية، فلم يتمكن من الوصول بسرعة إلى المرسى الكبير الذي دخله يوم 11 سبتمبر[1]، هذا التأخير كان لصالح الأسبان، فالسكان الذين كانوا قد اجتمعوا بكثرة بعد سماع أخبار قدوم الأسبان وهجومهم المنتظر، قد استعدوا للمواجهة وانتظروا حتى نفذت مؤنهم، كما أنهم بعد أن ملّوا الانتظار تركوا حامية ضعيفة حول الميناء لا يتعدى عددها 400 رجل، ومع ذلك أبدت مقاومة ضد الأسطول الأسباني، لكن قائد الحامية سقط قتيلا من أول يوم، فخضع المرسى الكبير لحصار دام ثلاثة أيّام، حاول خلالها السكان المقاومة لكن دون جدوى، وبعد وصول أخبار المرسى الكبير إلى المناطق المجاورة سارعت هذه الأخيرة تقديم يد العون والدعم، لكنها دخلت في مناوشات قليلة مع الأسبان ثم عادت أدراجها[2].

---

[1]- في حين تشير رواية الكونت سوايز أن احتلال المرسى الكبير كان بتاريخ 13 جويلية 1506. ينظر
Berbrugger A, "Mers-el Kabir 2 ; traduction de Suaez", In Revue Africaine, Vol.09, 1865, p340.

[2] -. Berbrugger A, "Mers-el Kabir 2 , Op.Cit., p 339

كانت المدينة تفتقد للمياه، فخزانات المياه قد نفذت وحلّ الجفاف، فأضطر أعيان المدينة وبقية السكان إلى الاجتماع في مجلس المزوار، حينها تكلم أحدهم وكان في السابق سجينا في مدينة قرطاجنة الأسبانية، وأشار إلى قوّة وشدّة الأسبان وانتصارات ملوكها ضد المسلمين وباقي الشعوب، وذكرهم كيف تمكنت البرتغال من احتلال سبتة، وطنجة، أسيلا، والقصر الصغير على ساحل مملكة فاس، وحذرهم من مغبة الانتظار حتى نهاية الحصار، فقد يقتلون جوعا وعطشا قبل أن تصل إليهم يد الأسبان، لذلك نصحهم بالرحيل وتسليم المرسى الكبير[1].

كان أحد السود المسيحيين، الذين تركهم البرتغاليون في المدينة بعد انهزامهم سنة1501م؛ قد فرّ من المرسى الكبير، وتوّجه إلى قائد الحملة الأسباني، واخبره بنفاذ المياه وعدم قدرة السكان على المواجهة، وأنّ قائد الحامية قد قتل. فما كان على سكان المرسى سوى المغادرة تاركين أموالهم ودوابهم وأسلحتهم تبعا لأوامر القائد الأسباني، ويأخذون معهم ما يستطيعون حمله فقط، وهذا ما تمّ بالفعل؛ حيث غادر السكان المرسى الكبير يوم 14 سبتمبر بداية من الساعة التاسعة صباحا، ولم يتبق أحد بعد منتصف النهار[2].

وقد ذكر الأسبان، أنّهم وجدوا 35 أسير مسيحي أغلبهم من البرتغاليين ، مع بعض الأسبان، ومن بروفنسال، وفرنسيين وإيطاليين من بينهم 07 نساء كانوا قد أسروا عام 1501م. فيا ترى ما هو سبب احتلال أسبانيا للمرسى الكبير؟

في الواقع؛ قدمت أسبانيا حجة مفادها أنّ السبب المباشر لغزوها المرسى الكبير هو أنّ قراصنة من المرسى الكبير أبحروا في ربيع 1505م على متن 12 سفينة بين خفيفة ومسلحة

[1] -Ibid., p340-341.

[2] -Ibid., p 341-342.

وقاموا بأسر برتغاليين، ثم واصلت سفنهم الإبحار إلى غاية فالنسيا، ونزلوا في جزيرة سانتا بولا Santa Pola، حيث سلبوا ونهبوا وعادوا إلى المرسى محملين بغنائم كثيرة، وهذا ما أغضب أسبانيا التي اعتبرت نفسها راعية الكنيسة الكاثوليكية. يضاف إلى ذلك سبب آخر؛ وهو اشتداد التنافس بين تجار المرسى الكبير ووهران، و التجار المسيحيين من قرطاجنة ومالقة، هذا التنافس أدى إلى حروب، فرأت أسبانيا ضرورة إخمادها وذلك بجعل ميناء المرسى الكبير ميناء إسباني على الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط[1].

على كل حال؛ بعد خروج المسلمين من المرسى الكبير، اقتحم الأسبان المدينة ورفعوا راياتهم على حصونها، واتجه قائد الحملة إلى مسجد المدينة الكبير، وأصدر قرارا مستعجلا بتحويله إلى كنيسة، عرفت بكنيسة القديس ميكائييل.

ثم اتجه الأسبان إلى تنظيم المدينة، فبدأوا بتحصينها، وإقامة سوق تجاري، ومحاولة إقامة علاقات مع السكان والقبائل المجاورة لخلق نشاط تجاري اقتصادي خاص بهم، لدرجة أنهم أغدقوا المتعاونين معهم بالذهب والفضة لتشجيعهم على المبادلات التجارية معهم.

اعتبرت اسبانيا احتلال المرسى الكبير من أشهر أعمالها في القارة الأفريقية، فأعلنت الاحتفالات، وأقيمت المهرجانات والأفراح طيلة أسبوع احتفالا بقرب انتشار الديانة المسيحية، وقد ضخّم الأسبان احتلالهم للمرسى الكبير، لذلك أسرعوا محاولين التغلغل أكثر نحو الداخل، وكانت مرحلتهم الثانية؛ تتمثل في احتلال مسرغين، وهي مدينة غير بعيدة عن المرسى الكبير، ويصل بينهما طريق سهلي أسفل حصون مدينة وهران، لهذا قرر حاكم المرسى

[1] -Ibid., p337-338.

الكبير دون فرناندیز أن يسلك الطرق الجبلية والأودية، خاصة بعد التعزيزات التي أرسلتها الملكة الأسبانية والمقدرة ب5000 رجل وذلك بتاريخ 06 جوان1507 م [1].

بدأ فرناندیز تحركه ليلا بتاريخ 07 جوان 1507، ووصل فجرا إلى مسرغين موطن قبيلة غمارة الرافضة للوجود الأسباني، وباغتها على الفور مما أدى إلى سقوط المقاومة في وقت وجيز. لكن سرعان ما تحولت مجريات الأحداث، فبالإضافة إلى الضباب الكثيف الذي خيم على القبيلة وصلت إمدادات من القبائل المجاورة التي أسرعت لنجدة سكان مسرغين، والتي حققت نجاحات باهرة ؛ حيث سقط أزيد من 3000 جندي إسباني، وكانت هذه أول هزيمة للأسبان في الجزائر. فقررت أسبانيا إرسال الدعم الفوري إلى المرسى الكبير لحمايته ضد الغارات، وتحصينه أكثر فأكثر.

**3 . 2 احتلال وهران:**

أبحر الكاردينال الأسباني خيمينيس من مرسى قرطاجنة يوم 19 ماي 1509 يرافقه 15000مقاتل، ووصلت هذه الحملة إلى المرسى الكبير في اليوم التالي، ونزل الأسطول في الميناء بكل سهولة ويسر، وتكرر الأمر نفسه في وهران بعد شراء ذمة قابض المكوس العام لمدينة وهران اليهودي سطورا.

وقتذاك كانت وهران اسميا تحت الملك الزياني، لأنها خاضعة لمجلس جماعة، وهم أعيان المدينة جعلوا وهران جمهورية شبه مستقلة. استعدت الحامية للمواجهة، لكن القوة الأسبانية حالت دون نجاحها، فقرر السكان الاحتماء داخل الحصون، لكن الأسبان كانوا قد

[1] - Berbrugger A, "Mers-el Kabir 3 ; traduction de Suaez", In **Revue Africaine**, Vol.09, 1865, p 410-411.

وجدوا الثغرة التي سينفذون عبرها إلى داخل المدينة، فقد قام أحد الخونة بفتح أحد أبواب المدينة.

ورغم تمكن الأسبان من دخول المدينة، إلا أنّهم واصلوا تعسفهم وقسوتهم فقتلوا حوالي 6000 مسلم وأسروا 8000، كما قاموا بمصادرة أموال ومؤسسات المسلمين، ولم تنج حتى الأثريات من المخطوطات العربية والزهريات وبعض التحف الأثرية، حيث قام خيمينيس باختلاسها وإرسالها إلى كنيسة طليطلة. كما قام بتحويل المسجدين الكبيرين إلى كنيستين، وأنشأ دير لتنصير المسلمين[1].

والمفاجأة هذه المرة؛ أنّ الحاكم الزياني في تلمسان أبو حمو الثالث قد أعلن خضوعه للحكم الأسباني، وتقديم جزية سنوية، وكذلك خضوع قبيلة بني عامر للحكم الأسباني[2].

### 3. أوضاع الأسبان بالمرسى ووهران 1505-1559:

أقامت أسبانيا حكما عسكريا في كل من وهران والمرسى الكبير اللذان ألحقا على الفور بالتاج الأسباني، وصدرت أوامر على الفور من القيادة الأسبانية ممثلة في شخص الملك فرديناند بإعادة إعمار المنطقتين بالمسيحيين بدل المسلمين، ففي رسالة وجهها الملك الأسباني عام 1510م إلى بيدرو نافارو حاكم المرسى الكبير جاء فيها:« أظنني، وكما كاتبتك عدة مرات، أوضحت أننا نرغب قي البقاء والاستقرار في إفريقيا، يجب أن نسيطر على وهران، بجاية، وطرابلس، ونعيد إعمار هذه المناطق بالمسيحيين لا غير»[3]. وفي 23 أكتوبر من نفس السنة كتب الملك إلى أنطونيو دي روفيدا Antonio de Roveda، في أمر يتعلق ببجاية قائلا:«

---

[1]- جون ب. وولف، مرجع سابق، ص 129.

[2] -,. Berbrugger A, "Mers-el Kabir 2 , Op.Cit, p339

[3] - Braudel F, " les Espagnoles et l'Afrique du nord de 1492à 1577", In **Revue Africaine**, Vol 69, 1928 , p231.

عليكم إتخاذ الإجراءات الضرورية لكي تعيدون إعمار بجاية في الحال بمورسكيين موالين لنا»[1].

بناء على رسائل الملك الأسباني فرديناند؛ نفهم أنه لم يكن لأسبانيا مخطط استيطان نظامي يسعى للتوغل نحو الداخل بقدر ما كانت تهتم فقط بالسيطرة على المناطق الساحلية.

كما طغى على الإدارة والسياسة الأسبانية فكرة تنصير المسلمين، وأنّ مبرر وجودها داخل الأقاليم الإفريقية هو من أجل خدمة الكنيسة الكاثوليكية فكثيرا ما كان يردد الملك الأسباني قوله أن حروبه كانت لخدمة الله.

على أية حال ؛ إن سيطرة أسبانيا على وهران والمرسى الكبير لم تعد عليها بالربح الوفير، والنتائج المنتظرة، فأبسط احتياجاتها من المؤن والغذاء كانت تأتيها من برشلونة أو فالنسيا، رغم قرب وهران من إمارة تلمسان، والأمر سيان بالنسبة لمليلة التي كانت تعيش على إمدادات مالقة، وبينيون في الجزائر كانت تجلب المياه الصالحة للشرب من جزر البليار، ويفسر هذا الأمر بقدوم القوة العثمانية التي أعاقت مخطط السلطة الأسبانية التي آثرت البقاء خلف أسوار وهران وعدم الخروج منها.

لكن مع ذلك لا يجب إغفال فكرة مسعى الأسبان لوضع يدهم على المناطق الداخلية أكثر فأكثر، وبدأوا يفكرون في احتلال تلمسان، وتجلى ذلك في عهد الحاكم ألكوديت d'Alcaudete الذي حاول إعاقة الحاميات التركية والتغلغل نحو الداخل الوهراني التلمساني، خاصة بعد رفض تلمسان تموين وهران والمرسى الكبير بالمؤن الغذائية، مما جلب المجاعة داخل هاتين المدينتين، وسادت عمليات السرقة واللصوصية، وقد كتب الكوديت عام 1535م يطلب من

[1] -Ibid., Idem

الملك الأسباني تقديم يد العون لوهران والمرسى الكبير قائلا:« نحن ضد المجاعة كما ضد العدو...»، وفي عام 1536م كتب ألكوديت قائلا« كان موسم حصاد القمح سيئا، وافتقرت المدينة للقمح، واستاء الجنود وطلبوا العودة إلى قشتالة»[1].

ألح الكونت ألكوديت على إخضاع تلمسان لسلطته، ولذلك سافر إلى أسبانيا في سبتمبر 1542م، لتوفير المتطلبات المادية والبشرية للحملة، وكان من الصعوبة تحقيق ذلك خصوصا بعد الإحباط الذي حدث للملك شارل الخامس الذي فشل في احتلال الجزائر، ولم يعد يفكر في إرسال حملة جديدة إلى الجزائر[2].

قرر ألكوديت شن حملة على تلمسان، بعد مساع حثيثة لدى القصر الأسباني وجهّز حملة مكونة من 22 سفينة، خرج بها من أسبانيا يوم 10جانفي 1543م، ووصل إلى المرسى الكبير يوم 15 جانفي، وفي27 جانفي توجه صوب تلمسان يرافقه 14000جندي[3]. التقت القوات الأسبانية بقوات أبي زيان وكان الانتصار حليف ألكوديت الذي دخل تلمسان وعاث فيها سلبا ونهبا، ثم عاد إلى وهران تاركا حامية من 1200 جندي.

كما سعى ألكوديت إلى احتلال مستغانم سنة 1547م لكن قوة القبائل المحيطة بها أعاقت حلمه هذا، وقد توالت هزائم ألكوديت الذي حاول مجددا احتلال مستغانم ومسرغين عام 1558 وسقط قتيلا، ومن يومها لم يعد يفكر الأسبان في توسيع حدودهم في الغرب الجزائري خاصة بعد سلسلة الخسائر التي تكبدوها. وبذلك ظلت أسوار وهران والمرسى الكبير هي

---

[1] - Ibid., p 375.

[2] -Ruff. P, **la domination espagnole à Oran sous le gouvernement du Comte d'Alcaudete 1534-1558**, Paris, 1900 , p76.

[3] -Haedo D , **Histoire des Rois d'Alger**, trad. H D de Grammont, Ed Alger-livre, Alger,2004,p74.

الحدود الأقصى لأسبانيا في الجزائر، رغم التبعية الاسمية لتلمسان إلى المملكة الأسبانية لبعض الوقت. وظل الأسبان يسيطرون على وهران إلى غاية 1705م تمكن الباي مصطفى بن يوسف الملقب ببوشلاغم من دخولها وإسقاط الحكم الأسباني، وصارت وهران تابعة للسلطة العثمانية إلى غاية 1732م أين تفاجئ العثمانيون بحملة إسبانية جديدة بقيادة الكونت مونتيمار Comte Motémarالذي تمكن من استرجاع وهران وكل حصونها، ففي تلك الفترة تمكنت أسبانيا من تنفس الصعداء وانتهت مشاكلها مع الدول الأوروبية وعلى رأسها فرنسا، فقرر الملك الأسباني شن حملة على وهران باعتبارها مقاطعة أسبانية خاضعة للكنيسة الكاثوليكية[1]. وقد حدث هذا في وقت شهدت فيه الأيّالة الجزائرية ضعفا وانكسارا، لتراجع مكانتها في حوض البحر الأبيض المتوسط، وضعف أسطولها، وكذا سلسلة الاتفاقيات التي أبرمها العثمانيون مع الدول الأوروبية والتي فتحت باب الابتزاز والمساومة، خاصة وأنّ السلطة العثمانية قد أبرمتها وهي تشكو الاضطراب واللاتوازن.

نفهم من هذا أن أسبانيا أصرت على إقحام العقيدة المسيحية في سياستها واستمرت في إخفاء حقيقة الأهمية الإستراتيجية والاقتصادية لوهران والمرسى الكبير، وقد ظلت أسبانيا مسيطرة على وهران إلى غاية 1792م بعد دخول العثمانيين إليها .

- **الخاتمة:**

نفهم مما سبق؛ أن حقيقة الوجود الأسباني بالموانئ والمدن الجزائرية قد ارتبط بمخطط استعماري واسع النطاق، ذلك لأن الأمر لم يكن ليقتصر على حوض البحر الأبيض المتوسط، بل إن هذا الأخير كان جزءا في برنامج أسبانيا لغزو الأقاليم والمواقع الإستراتيجية، ومع أنها كانت تتحكم في موقع استراتيجي مهم ألا وهو مضيق جبل طارق باعتباره بوابة

[1] -Berbrugger A," reprise d'Oran par les Espagnoles en 1732", In **Revue Africaine**, Vol 08, 1864, p20.

المتوسط من الناحية الغربية، غير أنها لاحظت أن قربه من سواحل المغرب الإسلامي من شأنه أن يقلل من أهميته خاصة إذا ما برزت ببلاد المغرب سلطات سياسية قوية، لذلك سارعت اسبانية على إحكام قبضتها على أهم النقاط القريبة من جبل طارق ، ووقع خيارها على المرسى الكبير ووهران بالجزائر، بالإضافة إلى مليلة في المغرب.

كما أن سيطرة أسبانيا على الموانئ الجزائرية سيكسبها ربحا اقتصاديا لعدة اعتبارات، أهمها أن الجزائر بمثابة همزة الوصل بين الصحراء الكبرى والجنوب الأوروبي، وبالتالي تتحكم في أهم الطرق البحرية والبرية التي تقصدها القوافل التجارية، سواء القادمة من أوروبا أو من بلاد السودان في الجنوب، فعلى سبيل المثال احتلال إسبانيا للمرسى الكبير جعلها على مقربة من أكبر الأسواق في بلاد المغرب في ذلك الوقت وهو سوق تلمسان. كما أن سيطرة أسبانيا على وهران والمرسى الكبير سينعش الحركة التجارية في السواحل الجنوبية لأسبانيا التي عانت من هجومات مسلمي بلاد المغرب بعد سقوط غرناطة عام 1492، والتي هجرها تجار جنوة وفينيسيا ومرسيليا وفضلوا عليها موانئ ومدن المغرب الإسلامي بما فيها وهران.

إن الحجة التي لازمت الأسبان منذ بداية نشاطهم الاستعماري والمتمثلة في حماية المسيحية ونشرها في كافة الربوع ماهي في الحقيقة إلاّ قناع تخفي به أطماعها الاقتصادية، فالمجازر والإرهاب الذي مارسه الأسبان في العالم الجديد ضد الهنود الحمر بمثابة البرهان على عدم صحة هذه الحجة.

**قائمة المراجع:**


1- أبي القاسم ابن حوقل النصيبي، **كتاب صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، 1992.

2- جون ب. وولف، **الجزائروأوروبا**، ترجمة سعد الله أبو القاسم،م.و.ك، الجزائر، 1986.

3- الحسن بن محمد الوزان الفاسي (ليون الإفريقي)، **وصف إفريقيا**، ط2، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

4- الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، مج 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002.

5- نجيب دكاني، **الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية وردود الفعل الجزائرية خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر ميلادي**، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 2002

6- Berbrugger A, "Mers-el Kabir 1 ; traduction de Suaez", In **Revue Africaine**, Vol.09, 1865, pp 251-267.

7- Berbrugger A, "Mers-el Kabir 2 ; traduction de Suaez", In **Revue Africaine**, Vol.09, 1865, pp 337-355.

8- Berbrugger A, "Mers-el Kabir 3 ; traduction de Suaez", In **Revue Africaine**, Vol.09, 1865 , pp 410-429.

9- - Berbrugger A," reprise d'Oran par les Espagnoles en 1732", In **Revue Africaine,** Vol 08, 1864, pp 12-28.

10- Braudel F, " les Espagnoles et l'Afrique du nord de 1492 à 1577", In **Revue Africaine**, Vol 69, 1928, pp185-233.

11- Haedo D **, Histoire des Rois d'Alger**, trad. H D de Grammont, Ed Alger-livre, Alger,2004.

12- Lespes R, "Oran, ville et port avant l'occupation Française1831", In Revue Africaine, Vol 75 ; 1934, pp 277-335.

**13-** Ruff. P, la domination espagnole à Oran sous le gouvernement du Comte d'Alcaudete 1534-1558, Paris, 1900.